اجتهادات
رائدة روائيا واجتماعيا

عندما سمعت عن المبدعة الإنجليزية الكبيرة جورج إليوت، التى مرت المئوية الثانية لرحيلها قبل أسابيع قليلة، للمرة الأولى فى وقت مبكر من حياتى، تصورت أنها رجل. كنت فى بداية رحلتى لمعرفة بعض معالم الأدب العالمى وسرعان ما عرفت مارى إى إيفانس، اختارت اسما قلميا ذكوريا خشية أن يُستهان بكتاباتها كونها امرأة. والأرجح أن هذا الشعور انتابها بسبب نشأتها فى بيئة اجتماعية مغلقة فى الريف الإنجليزى فى مطلع القرن التاسع عشر. وعندما اشتهرت باسمها القلمى، ربما لم تجد دافعاً للعودة إلى الاسم الأصلى.

توصف إليوت عادة بأنها من أعظم أديبات العصر الفيكتورى (نسبة إلى الملكة فيكتوريا) الذى بلغت فيه الثورة الصناعية أعلى مستوى فى تقدمها، وأتاحت إنجازاتها انتشار الكتب والمطبوعات والصحف، فازدهرت الحياة الثقافية. يرى البعض أنها أهم روائية فى ذلك العصر، وهذا اجتهاد مختلف عليه. ولكن يوجد اتفاق فى كثير من الأوساط على أن روايتها «ميدل مارش» الصادرة عام 1871 هى أفضل روايات ذلك العصر، إذ أبدعت فى تقديم صورة روائية بديعة لحياة كثير من فئات المجتمع الإنجليزى وشرائحه الاجتماعية.

غير أنها لم تكن مجرد روائية، بل ربما يكون الاهتمام الزائد بهذا المجال فى أعمالها ظلم مجالات أخرى لم تأخذ حقها فى الذيوع. ومنها مثلاً ترجماتها الفلسفية، التى أسهمت فى نشر أعمال فلسفية أوروبية مهمة

فى المجتمع البريطانى، وفى أوساط قراء الإنجليزية بوجه عام. وكان الفيلسوف الهولندى التقدمى سبينوزا فى مقدمة من حرصت على ترجمتهم. وربما أسهمت فى اهتمامها بهذا المجال زواجها من جورج هنرى لويس الفيلسوف والناقد الأدبى والمسرحى الإنجليزى، الذى كان أحد رواد التفكير العلمى فى أوروبا، إذ تبنى فلسفة وضعية حديثة. وجمع إليوت ولويس ميل تقدمى لم يخل من راديكالية بشأن قضايا المجتمع، وقيود العصر الفيكتورى الاجتماعية. ودعم لويس توجهات إليوت الحقوقية فى قضايا المرأة. وربما نستطيع أن نجد أساساً للحديث عن إسهامها فى وضع أساس مبكر جداً لفكرة النسوية وحركاتها التى تنتشر فى العالم الآن. ألا يصح، إذن، أن نعدها رائدة على المستويين الإبداعى والاجتماعى.